وباءان وأكثر

وباء "كوفيد ١٩" الذي ضرب العالم يذكّرنا بالأوبئة الماضية، وبعلاقة الإنسان بهشاشته وقدرته، على الرغم من هذه الهشاشة، على مقاومة الموت.

عشنا ولا نزال نعيش أياماً صعبة، مزجنا فيها مخاوفنا من الوباء بخوفنا من المجهول، واكتشفنا جوانب غامضة من أرواحنا، واختبرنا بالتجربة الملموسة كيف يتقاطع الوباء مع مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويدفعنا إلى إعادة طرح الأسئلة الفكرية والفلسفية والسياسية، التي تستعاد مع كل جيل.

هذا العدد من "مجلة الدراسات الفلسطينية" مخصص لزمن الأوبئة، وفيه نقرأ مقاربات فلسفية وتاريخية وأدبية للأوبئة التي ضربت منطقتنا في الماضي. وفي هذه الاستعادات المختلفة، نضع وباء كوفيد ١٩، الذي فتك ولا يزال يفتك بالعالم في إطاره، كجزء من تاريخ ساهم في صنع تاريخنا بعدة أشكال.

غير أن ما نشعر به اليوم هو أن عالمنا ليس محاصراً فقط بفيروس نستطيع أن ننتصر عليه، أو نتعايش معه على الأقل، بل إنه محاصر أيضاً بوباءَين يهددان وجودنا، وهما أكثر فتكاً من جميع الأوبئة ذات المصادر البيولوجية.

وباءان يحاصران العرب، ويتجسدان بأشكال متعددة، وقد تكون فلسطين هي مركز أحدهما أو كليهما. وهما ليسا منفصلين عن الوباءَين العنصري والكولونيالي اللذين ينتشران في العالم.

وباء العنصرية الذي يتجسد اليوم في العنصرية الصهيونية، يجد في الولايات المتحدة نموذجاً صارخاً لعنصرية مستمرة منذ قرون؛ عنصرية امتزجت بكولونيالية استيطانية متوحشة، واستعباد للإنسان الأسمر لم ينتهِ على الرغم من إلغائه قانونياً.

حتى الآن، جاء وباء كورونا إلى المنطقة بصيغة مخففة، مقارنة بمراكز الوباء في أوروبا وأميركا، لكنه أدى هنا أيضاً دوره القمعي، عبر تحوله إلى أداة لتشديد القمع، وإلى مبرر لإقامة حكومة الوحدة اليمينية في إسرائيل، والتي ستكون، بحسب نتنياهو، حكومة تأسيس إسرائيل الثانية عبر ضم أجزاء واسعة من الضفة الغربية، ودقّ المسمار الأخير في نعش مشروع الدولة الفلسطينية الذي ولد مشوّهاً وعاجزاً عن الحياة.

الوباءان اللذان يضربان المشرق العربي، هما أكثر خطراً من الطواعين التي اجتاحت هذه البلاد في الماضي، لأنهما يقدمان نفسيهما بصفتهما وباءَين لا شفاء منهما.

الوباء الأول هو الاحتلال، وهو وباء بدأ منذ اثنين وسبعين عاماً، حين كان المشرق العربي في المراحل الأخيرة من صراعه مع الاستعمارَين البريطاني والفرنسي. وجاء الاحتلال الإسرائيلي ليعلن أن المعركة لا تزال في بداياتها، وأن المشرق العربي مهدد باحتلال دائم، وأن عدو اليوم هو صيغة جديدة أكثر لؤماً ووحشية من عدو الأمس. إن معالجة هذا الوباء فشلت وتداعت في هزيمة الخامس من حزيران/يونيو، فالمصاب بوباء الاستبداد والفساد لا يستطيع مقاومة وباء الاحتلال.

الوباء الثاني هو الاستبداد الذي يتجسد في أنظمة سياسية حولت مجتمعاتنا إلى حطام،

وقامت بما عجزت إسرائيل عن القيام به، وهو التأسيس لنكبة عربية ثانية، فتداخلت النكبتان، وصارتا عنوانَين لواقع عربي يواجه حصارَين: داخلي وخارجي.

والاستبداد السياسي اتخذ في مجتمعاتنا أشكالاً متنوعة: ثقافية واجتماعية ودينية، وهي أشكال توغلت في البنى الاجتماعية: من الذكورية وقمع المرأة، إلى انهيار التعليم ومآسي اللاجئين، ومن المافيات الحاكمة إلى محترفي التعذيب في السجون.

هذا العدد الذي شارك فيه نخبة من المؤرخين والدارسين والنقاد العرب، هو مساهمة في تأمّل تاريخ الأوبئة في بلادنا، وتقديم قراءات مختلفة تاريخية وفكرية وسياسية وأدبية وفنية تضيء جزءاً من عتمة تاريخنا المنسي:

نقرأ في التاريخ مجموعة من المقالات لخالد فهمي، وناهد جعفر، وفاروق مردم بك، وسليم تماري، ووسام سعادة، وسلمان أبو ستة، وفي المقترب الفكري للوباء نقرأ لرائف زريق وفواز طرابلسي وجاد تابت وفادي بردويل وأنيس محسن وغسان أبو ستة، وفي المجالين الأدبي والفني نقرأ لصبحي حديدي والياس خوري وأحلام بشارات، وفي أثر الوباء في الاقتصاد الفلسطيني نقرأ لطارق صادق.

علاوة على ذلك هناك شهادة همّت الزعبي: "حيفا برلين وسؤال المدن الثقافية"، وثلاثة تقارير لوديع عواودة وأيهم السهلي ومهند عبد الحميد ترصد وقائع الوباء في دير الأسد ومخيمات لبنان والضفة الغربية.

ونختتم العدد بباب "في الذاكرة" نوجه فيه التحية إلى ثلاثة كبار فقدناهم: محسن إبراهيم ورمضان عبدالله شلّح ورمزي ريحان.

وفي النهاية فإننا نعتذر من كتّابنا لاضطرارنا إلى تأجيل العديد من المقالات والدراسات الممتازة إلى العدد المقبل، لأن "زمن الوباء" الذي أردناه ملفاً في العدد كبر وتحوّل إلى هذا العدد الخاص.

هيئة التحرير

وداعاً خالد عايد

فقدت "مجلة الدراسات الفلسطينية" سكرتير تحريرها السابق الأستاذ خالد عايد الذي غيّبه الموت في ٢٧ أيار/مايو الفائت.

نال خالد عايد شهادة الدكتوراه في الإنسانيات من الجامعة اليسوعية في بيروت، وعمل ٢٦ عاماً في "مؤسسة الدراسات الفلسطينية"، وشغل منصب سكرتير تحرير "مجلة الدراسات الفلسطينية".

خالد عايد الباحث والمناضل، لم يغب عن مجلتنا، وإنما بقي مساهماً رئيسياً فيها، مقدماً نموذجاً للمثقف الذي تفانى في خدمة قضية بلده، وكان مثالاً للمثقف المستقل الذي حافظ على كرامة الثقافة حتى الرمق الأخير.

تحية لخالد عايد.